خريطة جديدة بالألوان للثقافة المصرية

من مراسل « الآداب » سامي خشبه

هل يمكن الآن أن نفكر في خريطة جديدة للثقافة المصرية ، بالصورة التي تبدو بها في مراكز انتاجها ونشرها الرئيسية : الصحف والمجلات والكتب ، ووسائل الاتصال الجماهيرية ، الاعلامية والفنية (الاذاعة المسموعة والمرئية والمسرح والسينما) ، ثم الجامعة ومراكز البحوث والتخطيط الثقافية والعلمية ؟

منذ اللحظة التي أصبح فيها ممكنا أن نتحدث عن « حركة ثقافية » في مصر ، كان يتنازع هذه الحركة تياران : تيار التجديد ، وتيار استبقاء القديم . وقد بدأ التياران بالتطرف الكامل ، وظلت اجنحة من كل منهما متمسكة بهذا التطرف الى الآن ، وفي بعض اللحظات بدا — ظاهريا على الأقل — أن المتطرفين هم القادرون دائما على استجماع خيوط « الموقف الثقافي » وجمعها في أيديهم تبعا لتقلب الظروف — السياسية — خصوصا ، انعكاسا أو صنعا لوضع اجتماعي سائد . وفي لحظات أخرى كان يلمع خيط ضعيف يفكر في تحقيق نوع من الامتزاج بين « التجديد » وبين القديم ، أو بين « الجديد » وبين تراث السلف الصالح . وعلى المستوى « المعرفي » والفكري ، كانت قضية « الجهل » الحقيقي بالجديد ، وبخريطة تكوينه وتياراته ، والجهل الماثل بتراث السلف الصالح ، الجهل بالحقائق الموضوعية الجزئية ، والجهل بالمفاهيم الفكرية القادرة على تحقيق الامتزاج — أو اكتشافه في الحقيقة — وتوليد الشرارة ، كان هذا الجهل هو العائق « الثقافي » الاساسي أمام نجاح أصحاب خط الامتزاج الضعيف .

وأيا كانت الصورة التي يمكن أن يرسمها للماضي أي تحليل ممكن ، فان الواقع يقرر حقيقة واضحة : ان تيارا معينا ، من قلب تيار الدفاع عن تراث السلف الصالح ، أو يرفع شعارات هذا التيار ، يحاول الآن احكام سيطرة شبه كاملة على « الحركة الثقافية » في مصر ، مع استثناءات محدودة في الجامعة وفي مراكز البحوث العلمية والثقافية ، وأن كثيرين من أصحاب تيارات « التجديد » والتبشير بالجديد قد قرروا ان ينتقلوا الى التيار السائد ، وأن يستخدموا الشهرة الاجتماعية ، والقدر المحدود من المكانة الثقافية التي حققتها لهم تياراتهم التجديدية القديمة ، لتأكيد نزاهتهم العقلية وتحررهم من الجمود ، وهناك دوافع دفعتهم الى هذا الانتقال . والتيار « السلفي » السائد يرحب تماما بهذا الانتقال ، ويضغط من أجل انجاز نجاحات اضافية بضم و « هداية » أكبر عدد ممكن من وجوه المجددين — المارقين السابقين — الى معسكر يرفع شعارات « الحكم بالشريعة » في السياسة ، والاكتفاء بالغزالي في الفلسفة ، وبابن حنبل في الفقه ،.. الخ ... دون ان يملك « ابطالا ثقافيين » حقيقيين وجماهيريين ، باستثناء الابطال الذين تولدهم وتسلط عليهم الأضواء أجهزة الاعلام ، لكي تكشف عن العجز العقلي الكامل لهذا التيار واحتياجه الفعلي الى وجوه جماهيرية ،من المارقين السابقين ، اكتسبوا جماهيريتهم كما قلت على أساس ومن خلال « تجديداتهم » .. القديمة . لم يعد غريبا ان نقرأ اليوم او نسمع واحدا كان يبشر بالوجودية مثلا ، أو آخر كان يرى أن كل ما تركته الثقافة العربية القديمة ليس جديرا الا بصناديق القمامة ، أو ثالثا كان يعتقد أن الحياة العقلية والوجدانية للبشر بدأت وانتهت عند اليوت وهوايتهيد ، أو رابعا كان يرطن رطانة ماركسية ثم انقلب الى رطانة فرويدية حتى عهد قريب .. الخ الخ .. وهم يرددون الآن آيات الذكر الحكيم أو يتحدثون عن رابعة العدوية والسيد البدوي ويفكرون — وينفذون أفكارهم — عن اعادة تفسير القرآن الكريم ، أو وهم يكيلون المدائح « الحضارية » للملوك ، مهما قيل عن مشاركتهم — واستفادتهم — في موقف قومي وطني بعينه — فلا يمكن وصفهم بالديموقراطية والايمان بالحرية ، خصوصا اذا تذكرنا ماذا كانت تعنيه كلمات من هذا النوع عند هؤلاء الكتاب .

اما تيار السلف الصالح ، فقصاراه حتى الان ، ان يعيد قراءة اشياء بعينها — كتب او مراحل تاريخية او شخصيات — وان يحاول تجميعها واعادة سردها كما هي تقريبا ، مع احاطتها بحشد من الكلمات « المهيجة » غالبا عن الاخطار التي تحيق بالاسلام .

ومع الانحسار الذي نعرفه عن سوق الكتاب في مصر — ربما بسبب الازمة الاقتصادية وارتفاع اسعار الكتب واسعار الضروريات في وقت واحد للدرجة التي تدفع الجانب الاعظم من « زبائن »الكتاب الى تفضيل شراء الضروريات وتجاهل وجود الكتاب نهائيا ، وربما بسبب ما حققته حياتنا الاجتماعية والسياسية في سنوات طويلة مضت من نشر الشعور بالاستهانة بالعلم عموما وبالمعرفة والقدرة على الفهم كوسائل مضمونة للصعود الاجتماعي أو حتى كقيم جديرة بالاحترام — مع هذا الانحسار للكتاب باعتباره وسيلة — أو الوسيلة الوحيدة للمعرفة « الثقيلة » — تكتسب وسائل نقل المعلومات العاجلة واليومية ، ونشر الاراء المتبدلة السريعة التغير بهدف صنع « رأي عام » وليس بهدف دفع الافراد والجموع الى مزيد من الوعي والاستنارة، تكتسب هذه الوسائل قيمة كبيرة : وتتحول المعلومات الى نوع من التسلية التي لا علاقة لها بذات الانسان وقدرته على فهم حياته او السيطرة عليها ، وتتحول الفن الى مصدر للتسلية اساسا ، وتتحول « الانباء » الى اعلانات عن السلع الجديدة التي لا بد سيشتريها الزبائن حتى ولو لم يكونوا بحاجة اليها . وفي افضل الاحوال تصبح للمعلومات والانباء والاعمال الفنية وظيفة جديدة غريبة ، وهي احاطة المناسبات الطارئة (مثل زيارة زعيم اجنبي) اوالمناسبات الثابتة (الاعياد القومية مثلا) بالديكور الاعلامي والدعائي المناسب، يصاغ بالطبع بالمصطلحات واللهجة المناسبة للاتجاه الثقافي السائد كقاعدة عامة ، ولنوعية المناسبة ومضمونها في القاعدة الخاصة .

★ ★ ★

ولكن الصورة تختلف في الجامعات المصرية ، وفي مراكز البحوث العلمية القومية (في التخصصات العلمية المختلفة) . ومن المفهوم بالطبع ان هذه المؤسسات الاكاديمية يصعب ان تعيش حياة منفصلة عن الحياة الفكرية والانتاجية والعملية التي يحياها الواقع من حولها . ان طلبتها يأتون من هذا الواقع ، وفيه يعيش اساتذتها والباحثون فيها وينتجون ويمارسون علاقاتهم الاجتماعية ويستمدون منه معاييرهم الاخلاقية والسلوكية .. الخ . ولكن قد يكون للحياة

الاكاديميـة ـ وهي جزء أساسي من الواقع الذي يعيشونه ـ تأثيرها الخاص (وفي الجامعات بالذات ، اكثر منهـا في مراكز البحوث) كمـا قد يكون للتراث العلمي والفكري الذي تركته اجيال من الاساتذة تأثيره أيضا (وبوجه خاص في كليات دراسة القانون ـ الحقوق ـ في التخصصات الانسانية ، وفي كليـات العلوم والهندسة من الكليات العلميـة) . وارجـو ملاحظة انني اتحدث عن الجامعات العلمانية، لا عن جامعـة الازهر ، التي يطالبون الان بان يرتدي جميع اساتذتها وطلبتها الملابس الازهرية التقليدية ـ دفاعا ايضا عن الاسلام !

يمكن أن يقال الكثير عن فقر المناهج الدراسية وتخلفها ، وعـن جمودها أو العمل على «تجميدها» ، كمـا يمكـن ان يقال الكثير عن سيطرة نفس القيم الاجتماعية السائدة في اقسام برمتها من كليـات جامعية كثيرة : عن الفهلوة والشللية وتحكيم الاهـواء الشخصيـة في الصراعات الفكريـة والعلميـة ، بل يمكـن ان يقال الكثير عن«الجهل» المنتشر بين الاجيال الشابة من الباحثين والمدرسين نتيجة الفقر العلمي الذي يعيشونه في مراحل الدراسة الاولى .. ولكـن ارتباط هؤلاء الاكاديميين المباشر بحركة الطلبة المتمردة من ناحية ، وارتباط عناصر كثيرة من « الاكاديميين » بتراث مستنيـر تركته اجيال من الاساتذة القدامى ، وطبيعـة المواد المدروسة ذاتهـا واصولها ـ في القانـون مثلا وفي الرياضـة وفي تاريخ العلم ـ هذه كلهـا عوامل تترك اثارا قويـة على اعداد متزايدة من الاكاديميين الشبان ، وخاصة حينمـا ينجـح الاكاديمي الشاب في خلق علاقة حية بين نشاطه العلمي داخل الجامعة وبين الحياة الثقافية والفكرية خارجها .

* * *

لا احسب اننا اقتربنا كثيرا من الاجابة على سؤالنا الاول ،عن امكانيـة التفكير في خريطة جديدة للثقافة المصرية ، بالصورة التـي تبدو بـها في مراكز انتاجها ونشرهـا الرئيسية . ولكنني احسب ان طريق التفكير في هذه « الخريطة » قد اصبح مفتوحا . لـم نستخدم هذه المرة « أسماء » بعينها لكل نبيـن « تضاريس » الخريطـة . ولكننا اكتفينـا بتبيـن الالوان التي ستحدد كتلها الاساسية .

القاهـرة

محمود درويش مجلة رقم ٧

في مجموعته الجديدة

●

وينتشر البحرُ
بين السماء ومدخل جرحي
واذهب في افق ينحني
فوقنـا
ويصلي لنـا
او يكسرنا
هذه الارض تشبهنا
حين ناتي اليها
وتشبهنا
حين نذهب عنها .

●

آه !
ما اصغر الارض
ما اكبر الجرح !
آه ،
ما اكبر الارض
ما اصغر الجرح !

●

صدر حديثا